الفصل الأول

البرديات تكشف أسرار الطب عند الفراعنة

obeikandl.com

obeikandl.com

١- « بردية إدوين سميث » :

لقد ظلت الفكرة البدائية شائعة بين المؤرخين حتى سنة ١٩٣٠م عندما ظهرت ترجمة «بردية إدوين سميث» التى قال عنها مترجمها «برستد» إنها قد أحدثت ضجة بين علماء مصر فى هذا الوقت ، ونحن نقرر أن هذه الضجة لا تقارن بتلك التى أحدثتها بين علماء الآثار المصرية فى عصرنا هذا ، وقد بلغ إعجاب ناشرها بها حداً جعله ينسبها إلى أمحوتب نفسه ، إله الطب ، [شكل ١]

وقد تكون الفرصة سانحة لنقول : إن المعلومات التى تحتويها مستقاة من موسوعات طبية أو من مخطوطات ، أى أنها منقولة عن أصول أقدم ، ترجع إلى أول عهد الأسر ، وإن كنا لا نعرف شيئاً عنها .

ولنذكر من بين الأدلة شاهداً على هذا القدم ، فقد وردت بعض العبارات مثل «هنا وجد تمزيق» أو «هنا لم توجد أية كتابة» ، وهناك تعليقات عن فوائد الوصفات المذكورة ، أو بعض الألفاظ العتيقة التى اقتضت تفسيراً لغوياً ، وهذه العبارات كلها مكتوبة بالخط نفسه فى صلب المتن ، كأن النص والهوامش نسخت دون تمييز .

يرجع تاريخ هذه البردية إلى عام (١٥٥٠ ق . م) ، ويرجح الأستاذ محمد كامل حسين أن يكون مؤلفها من معاصرى بناء الهرم الأكبر ، إذ كانت إصابات الرأس الناتجة عن سقوط من ارتفاع ، والتى تزخر بها تلك البردية ، كثيرة الحدوث فى ذلك الوقت . ووجد أنه لم يكن من الكهنة السحرة الذين ينصرفون عادة إلى تلاوة التعاويذ وإطلاق البخور ، ، ولكنه رأى فيه إنساناً يدفعه ضميره إلى ملازمة المرضى ليالى طويلة يترقب فى أثنائها علامات الشفاء أو النكسة ، ثم يفكر فيما لاحظه ، ولا يقصّر فى تشريح الموتى لمعرفة سر الوفاة ، وبعد ذلك يملى ملاحظاته فى لغة طبيعية بسيطة وليست من كلام المتفقهين .

* ماذا تقول سطور البردية ؟

تصف هذه البردية ثمانية وأربعين مشهداً واقعياً فى جراحة العظام والجراحة العامة ، تبدأ بالرأس وتنزل حتى القطن ، وربما كانت تشمل فى الأصل كل أجزاء الجسم ، إذ أن آخر مشهد فيها ـ وهو يخص العمود الفقرى ـ ينتهى بعبارة ناقصة .

ومما يلفت النظر هذا التناسق البديع مع دقة الملاحظة ومراعاة أصول العلم الحديث فيما تعرضه سطور هذه البرقية من آراء علمية وعملية فى فن الطب والعلاج .

فإن كل مشهد يبدأ بالعنوان التالى : « تعليمات فى شأن ..» ثم يجئ الفحص : «إذا تفحصت رجلاً به ..» ، ويتبعه التشخيص : « قل فيما يخصه إنه يشكو من ... » ثم تذكر النتيجة المتوقعة ؛ وتعبر عن ثلاثة احتمالات : الشفاء المؤكد ، والمشكوك فيه ، والميئوس منه تعبر عنه بالعبارات التالية : «سأعالجه» أو «سأكافحه» أو «مرض لن أعالجه» . وبعد ذلك يأتى العلاج ، وهو ينتهى بالتعليقات والتفسيرات ولاشك أن هذا النظام ، وهذا الترتيب ينبئ عن دلائل تفكير أصيل ، وتأمل دقيق ، وتقاليد طويلة سبقت الكتابة .

ويضاف إلى تلك الصفات خلو البردية من السحر ، اللهم إلا فى حالة واحدة لا يتوقع لها الشفاء ، وربما كان سبب هذا الخلو أنها تناولت جروحاً ظاهرة الأسباب وأنها لم تتعرض لأمراض لها أسباب خفية يرجع منشؤها إلى الآلهة والأرواح الشريرة على حد زعمهم .

وتتجلى واقعية هذه البردية كذلك فى دقة الملاحظات التى تسردها ، فقد عرف مؤلفها ، ولا شك فى ذلك ؛ أنه كان طبيباً غاية فى التدقيق ، فقد عرف قيمة قرقرة العظام فى التمييز بين الكسر والجزع ، وعرّف الجَـزْع بأنه «إصابة الأربطة دون تغيير فى وضع العظام» .

وعَرف صلة المخ بالحركة الإرادية وتعيين ناحية الشلل بناحية الدماغ المصابة، وأدرك علاقة الصمم بإصابة عظمة الدماغ ، وأكد قيمة حسّ جروح الرأس ، فشبه كسر الجمجمة بثقب فى إناء من الفخار ، وصرح بسوء مآل الحالات التى لا يشعر فيها بنبض المخ ، وتلك التى يحس فيها العظم منخفضاً داخل المخ، وتلك التى يلاحظ فيها تصلب الرقبة والنزف تحت الملتحمة ومن المنخرين أو من الأذن .. كما وصف كسر العمود الفقرى ، وما يتبعه من شلل رباعى ، وانتصاب ، واستمناء دون فقدان الوعى ، وخص الاستمناء بكسور وسط الرقبة ليس غير . ومما يشير إلى إجراء المؤلف للعمليات التشريحية لتلك الحالات ، أنه شبّه الفقرة المنغرزة فى الفقرة التى تليها بالقدم التى تغوص فى أرض منزرعة .

* البردية والعلاج :

أما عن العلاج ، فقد وصفت تلك البردية ، رد الكسور والخلع بطرق تنم عن مهارة فائقة فى هذا الفن ، فمن التعليمات التى وردت بها فيما يخص علاج كسر الترقوة : «إلق المريض على ظهره ، ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزء من ترقوته ، ويرجع العظم المكسور إلى موضعه . وبعد ذلك ثبّت وسادة من الكتان على الجانب الأيسر من ذراعه ، وضمده بالأمرو [1] ثم بالعسل فى الأيام التالية» .

ويرى أستاذ العظام الدكتور محمد كامل حسين : «أن الطب الحديث لم يجد أحسن من هذه الطريقة ، وأنها ترقى إلى درجة من الكمال لا داعى عملياً لتحقيقها» .

وفى «البردية» نفسها إرشادات خاصة بخلع الفك الأسفل تقول : «إذا تفحصت رجلاً عنده خلع فى الفك الأسفل ولا يستطيع إقفاله ، فضع

---

(١) مرهم مجهول التركيب .

إبهاميك على طرفى الفك داخل فمه ، وأصابع يديك تحت ذقنه ، ثم عليك بعد ذلك رده إلى الخلف فيعود إلى مكانه» وقد وصف أبقراط تلك الطريقة بالألفاظ نفسها ، واقتبس الأطباء العرب أمثال ابن سينا هاتين الطريقتين وكأنه عرّبهما تعريباً .

وكان كسر الأنف يُعالج بإدخال لفائف صغيرة من الكتان داخل فتحتيه لحفظ شكله . وفى اللفافة نفسها وصف لمرض قد يكون التيتانوس [1] .

وهذا الوصف خصّ حالة كسر فى الجمجمة تبعه تقلص فى الرقبة وتعوّج فى الفم ، وقال عنها إنه لا سبيل إلى علاجها ، غير أن الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين يرجح أن الحالة هى حالة التهاب سحائى .

إلى هنا نكون قد طالعنا سطور البردية تماماً ، والآن تعال بنا لنرضى قلق فضولنا ، ونطالع معاً سطور برديات طبية أخرى ، فهى تروى لنا عن أجدادنا المصريين سرّ تقدمهم فى هذا الفن .

٢ـ « بردية كاهون » :

عُثر على هذه البردية فى مدينة اللاهون بالفيوم ، وسماها العالم الذى وصفها «بردية كاهون» مخطئاً فى اسم البلدة المصرية التى تم فيها هذا الكشف القيم .

وهى أقدم بردية طبية بالمعنى الحقيقى ، كما أن الأصل الذى استنسخت منه أقدم من أصول البرديات الأخرى .. وهى تصف سبعة عشر تشخيصاً فى أمراض النساء وقدراً مماثلاً من حالات الولادة وبعض طرق التكهن بالإخصاب فى النساء أو جنس الجنين . والغريب أن مؤلفها قد جمع فيها بين طب النساء والطب البيطرى ولا أدرى مغزى هذا !

---

(١) هذا المرض نسب أو ذكر له ابقراط أيضاً .

٣- « بـرديـة إبـرز » :

يرجع تاريخ هذه البردية إلى عهد «بردية إدوين سميث» وهى المرجع الأساسى لمعرفتنا للطب الباطنى . وقد وصلتنا كاملة دون نقص أو تشويه .

وهى تحوى مجموعة صُـنفت من مـؤلفات وصلت صفحاتها إلى الكتب متناثرة ، فاستنسخها حسب ترتيب وصولها فأدى هذا الخلط إلى بلبلة أجهدت الإخصائيين عندما حاولوا تفسيرها .

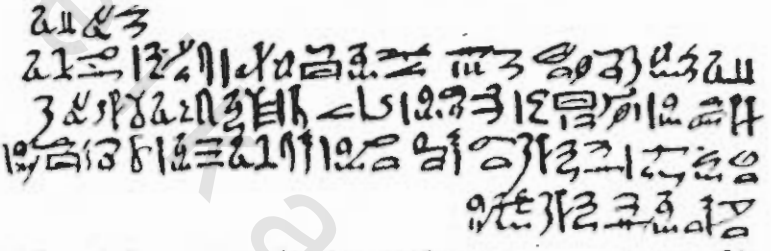

تذكرة طبية لنص مصرى قديم مكتوب بالخط الهراطيقى على ورقة إبرس الطبية ويقرأ من اليمين الى اليسار. و إليك قراءته وترجمته بالعربية

(١) اللفظ بالعربية

(١) ك ـ ت ن ـ ت در كا كاو ـ ت م ع ـ ت نب ـ ت ن ـ ت س ند عش سف ـ ت خساى ـ ت حر نس ش حرنى وبد مو ز سنا ماو م خت وع ـ ت جس ام

(ب) ك ـ ت حا ـ ت مح ـ ت حسا حسمن دشر مرح ـ ن جس ام عش ـ و (عش ـ و) سب نى

(٢) الترجمة بالعربية

(١) (علاج) آخر لدره كا كاو (ربما كان داء السرطان) من أى عضو انسان دهن الارز (ا) . خشخاش (٠) (ا) لسان البركة (ا) . صداء الرصاص (٠) (ا) اوبد (ا)(دواء) يصحن ناعما وماء ويمزج معا ويدهن به

(ب) ملح بحرى (ا) . سائل نيلى (ا) . نطرون احمر (ا) . زيت (ا) يدهن به مرارا مرارا

* ماذا تقول سطور البرقية ؟

«أ» الصلوات والتعاويذ .. تدل على تقوى قدماء المصريين :

ومما يدل على تقوى قدماء المصريين فى نظرتهم إلى المرض أن المؤلف استهل بالدعوة الآتية : «هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لأجزاء الجسم وأمراضه جميعاً ، ولدت فى هليوبوليس مع كهنة «حت عات» ، ولدت فى سايس مع إلهات الأمومة ، ومنحنى سيد الكون كلمات أستعين بها على طرد الأمراض وإبعاد الآلام الوبيلة ... يا إيزيس خلصينى من جميع المؤثرات الشريرة ، ومن الأمراض الشيطانية ، والملوثات التى رميت بها كما خلصت ابنك حورس» .

أما النظرة الشعبية إلى المرض على أنه من أفعال الأرواح فإننا نراها ، بالإضافة إلى النصوص الطبية ، فى خطاب طريف وجهه مريض إلى زوجته المتوفاة ، يلومها فيه على مرضه ، فيذكّرها بما كانت حظيت به عنده وهى فى كنفه من الرعاية والعناية ، وبأن تلك العناية لم تتأثر بازدياد ثروته واتساع سلطانه ، كما أنه يشير إلى ما أقامه لها من المآتم الفخمة اللائقة بها . غير أن الصلوات والتعاويذ فى «بردية إبرز» لا تتجاوز الاثنى عشر من بين ٨٧٧ فقرة .

* ماذا تقول بقية سطور البرقية ؟

يمكن بسهولة تقسيم الباقى إلى موسوعة شاملة لأمراض البطن والجلد والعينين والنساء والأطراف ، والجروح والحروق ، ثم إلى كتابين فى القلب والأوعية يعدان أقدم مؤلفين يتناولان الحياة والمرض ووظائف الأعضاء بطريقة واقعية خالية من التأملات الفلسفية أو الروحانية أو أساطير الآلهة ، وهو يختتم بباب مطول عن الأورام .

وقد وردت فى تلك البرقية فقرات جديرة بالإعجاب . فإليك وصفاً ينطبق تماماً على الذبحة الصدرية أو انسداد الشريان التاجى يقول : «إذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلام فى ذراعه وصدره وناحية من معدته .. قل بصدده: الموت يهدده» .

ثم إنها تضم مجموعة من أوصاف الأورام ومن السمات الاكلينيكية التى تميز أنواعها المختلفة ، من أورام دهنية وفتق ، وتمدد شريانى ، وأكياس وخراريج وهى جديرة بدراسة مستقلة ، فقد أوصت البردية بجسها ، فإذا كانت متموجة أوجب حسبانها سائلة أو دهنية ، وإذا كانت نابضة فهى أورام أوعية لا تعالج بالمشرط ، وإذا كانت تظهر فى جدار البطن فوق العانة بعد السعال أمكن إرجاعها إلى البطن (فتق) ، ومنها ما هى ـ على قول البردية ـ أبشع وهى التى تظهر البثرات وترتسم الرسوم على سطحها ، وتحدث ألاماً شديدة فيقال عنها إنها أورام الإله «خونسو» ولا يفعل لها شىء أى أنها لا تشفى ، وهذا الوصف قد ينطبق على الجمرة أو السرطان ، ومنها أيضاً الخارجة عن إمكانات العلاج ومن المحتمل أنها تصف الجذام .

٤ـ « بردية برلين » :

وهى تحوى تعاويذ لتسهيل الولادة ومعرفة نوع المولود ، ووقاية الأطفال وقت الولادة وغسل المولود وقطع سرته وتطييب ملابسه بما يستطاع . وهناك برديات طبية أخرى ولكنها أقل أهمية .

وتجدر الإشارة ـ كما سبق أن قررنا ـ أن معظم طب ابقراط ؛ الذى يعتبرونه أبا الطب وجالينوس و ديسقوريدس ، وهم أشهر أطباء اليونان قد أخذوه عن الطب المصرى القديم .

* الطب المصرى القديم فى الميزان :

١ـ الجـراحات :

إذا أردت أن تعرف الجراحات التى كان المصريون يجرونها فما عليك إلا أن تذهب لمشاهدة بعض مقابر الأسرة السادسة بسقارة ، فسوف ترى نقوشاً تمثل الفتق السُّرّى ، والقيلة المائية أو الفتق الإربى ، وورماً أو تضخماً بالثدى ، وتمثل هذه المجموعة أيضاً تليف الكبد البلهارسى ومضاعفاته .

٢ـ هل عرف الفراعنة التخدير ؟

والإجابة هى : أنهم عرفوا خواص نباتات مخدرة كثيرة مثل: الأفيون والسكران واللقاح ، ولعلهم استعملوها لتخدير المرضى قبل إجراء الجراحات ، وإن لم يُذكر شيء من هذا فى النصوص المعروفة .

أما عن ذكر التخدير فإنه يقتصر على نبذة وردت فى وصف الرحالة «سترابو» عند زيارته لمصر ، والتى قال فيها : «إن المصريين يخلطون حجر منف بالخل ويضعونه على سطح الجلد ليخدره» . وقد فسّر البعض هذا بأن الحجر يتفاعل مع الخل فيتصاعد منهما غاز ثانى أكسيد الكربون وهو غاز مخدر ، ويعلق الأستاذ الدكتور «بول غليونجى» على هذا بقوله : «إننى أجريت هذه التجربة مستعملاً الرخام والطباشير ولم ألاحظ أى تخدير!» .

٣ـ الختـــان :

هناك عبارة وردت قبالة نقش الختان بسقارة تقول : «إن هذا ليجعله مقبولاً ولعلها تعنى وضع مرهم مخدر على العضو قبل الجراحة .

وقد مارس المصريون القدماء عملية الختان منذ بدء التاريخ ، وأخذ اليهود هذه السُّنة عنهم ، وكانت تلك العملية تُجرى بين السادسة والثانية عشرة ،

ويُرجح أنها لم تُفرض إلا على الكهنة وأعضاء الأسرة المالكة ، ويلاحظ أن هذه العملية قد نقشت على مرتين : إحداهما فى الكرنك ، والأخرى فى سقارة .

وفى سقارة ينقسم النقش إلى قسمين : حيث تلاحظ فى الجزء الأول العبارة السابقة التى تشير إلى التخدير ، كما تلاحظ تسمية الخَتّان بالكاهن المختّن ، الأمر الذى ينبئ عن طابع العملية الدينى ، وقد يُفسّر عدم ورود أى نص فى شأن الختان فى البرديات الطبية ؛ اللهم إلا نبذة يسيرة وردت فى «بردية إبرز» ترجمها «إبل» علاج لفلفة نزفت ، فأرجعها إلى عملية الختان ، وإن كان «جرابو» قد ترجمها على وجه مختلف : (شوكة سنط أحدثت نزيفاً) .

وإنما ذُكر هذا الاختلاف لبيان الصعوبات التى يقابلها من يخوض فى بحر الطب العتيق .

ويروى «سترابو» أن هذه العملية كانت تُجرى أيضاً للبنات ، ولكننا نرى ضرورة التحفظ فى قبول تصريحات هذا المؤرخ ، إذ أنه ذكر فى الرواية نفسها : أن اليهود اقتبسوا عادتى الختان للذكور ، والخفض للإناث من المصريين ، والمعروف عن اليهود أنهم لم يخفّضوا بناتهم البتة .

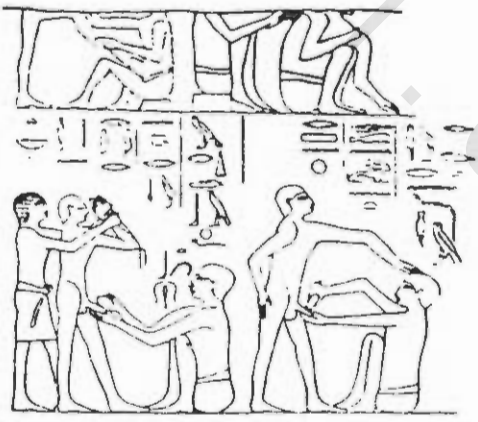

ترى فى الجزء الاسفل من هذا الرسم طبيبين يجريان عملية الختان لشابين
وهذا الرسم مأخوذ من القبر الشهير بقبر الأطباء بسقاره

وإذا كان تفسير نقش الختان لا يحتمل الشك ، فإن المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركان للمشاهد مجالاً للخيال ، يبين أحدهما أشخاصاً يعنون بقدمى شخص آخر ويديه ، بينما هو ممسك ذراعه بيد منقبضة . وقد رأى البعض فى هذا الرسم مثالاً للتدليك وتقليم الأظافر ، فى حين رآه البعض الآخر مثالاً للتحريك أو إجراء عمليات جراحية . هذا عن النقش الأول فى عملية الختان .

أما النقش الثانى: فإنه يمثل سيدات يخرجن من باب ويتوجهن إلى مكان ؛ لا يمكن بيانه ؛ لإزالة حجر يحمل بقية النقش ؛ تقول نصوصه : «وقد أُغشى على بعض هؤلاء السيدات وخفّ البعض إلى مساعدتهن على القيام من الأرض» .

ومما يلفت النظر استدارة بطن إحداهن وامتلاؤه ، وهو أمر دعا إلى القول بأن صاحب المقبرة كان طبيباً ، وأن هذه القاعة بما حوته من النقوش التى تمثل عملية الختان ، وبعض العمليات الأخرى على الأطراف ، وسيدات حوامل ، ربما كانت عيادة الطبيب . هذا مع التسليم بأن ألقاب صاحب المقبرة لا تشير إلى أى عمل طبى ، وأن المختن لُـقّب بالكاهن وليس بالطبيب ، فى حين نرى فى قاعة أخرى طبيباً من أتباعه اسمه «عنخ» يحمل لقب الطبيب «سونو» .

* هل عرف الفراعنة شيئاً عن طب الحنجرة ؟

هناك نقوش ترجع إلى الأسرتين الأولى والثانية ، وهى متصلة بأعياد اليوبيل الملكى المسحى «حب ـ سد» حيث كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة إلى الفرعون الكهل وبالتالى إلى الدولة بأجمعها . ويمثل بعض هذه النقوش شخصاً جالساً يصوب نحو رقبة شخص آخر آلة حادة مستطيلة .

أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد مُنحن إلى الوراء وذراعاه مربوطتان إلى الخلف . وقد ذهب «بترى» وغيره إلى أنها تمثل ذبح الأسرى أو القرابين البشرية فى أثناء هذه الحفلات . إلا أن «فيكانتيف» قال عنها : «بما أنها متصلة بمراسيم (الحب ـ سد) فهى تشبّه الشعب بمريض مختنق ، وتشب طقوس اليوبيل بعملية إعادة التنفس بفتح القصبة الهوائية ، ولذلك فقد اعتبرت تلك النقوش كتابة تصويرية يمكن قراءتها على الوجه الآتى : « يتقبل شمال البلاد وجنوبها هواء الروح » ، ومن ثم فقد اتخذ «فيكانتيف» من ترجمة تلك النقوش برهاناً على معرفة المصريين لهذه العملية السالفة الذكر وفوائدها .

* الترينة : جراحة قديمة :

أما الترينة ، وهى عملية مارستها شعوب قديمة كثيرة لأغراض هى إلى السحر أقرب منها إلى الطب ، فإنها لم تُذكر فى النصوص ، شأنها فى هذا شأن الختان ، إلا أن متاحف عدة تحوى جماجم بها ثقوب مستديرة ، تدل حوافها الملساء على حدوث تغييرات حيوية قبل الوفاة ، ويرجح أنها نتيجة عملية الترينة ، وقد وُجدت ـ بالإضافة إلى ذلك ـ عظام مبتورة وملتئمة ، الأمر الذى يدل على إجراء العملية والمريض على قيد الحياة ، ثم على شفائه من هذه الجراحة .

رسم أطباء مصريين يجرون عمليات جراحية فى أيدى وأرجل بعض المرضى.
هذا الرسم ماخوذ من قبر الاطباء بسقارة من عهد الملك تتا الثانى أول ملوك الاسرة السادسة اى حوالى ٢٦٠٠ سنة ق.م. وترجمة النقوش المصريه القديمة المكتوبة على هذا الرسم فى القسم الأعلا من اليسار الى اليمين «أمسكه ولا تدعه أن يكون ....» والقسم الأسفل الى اليسار يقرأ من اليمين الى اليسار وترجمته «أعمل هذا واجعله ان ينتهى» والجملة الواقعة فى الوسط تقرأ من اليسار الى اليمين وترجمتها «انى سأعمل لك حسب رغبتك يا أمير» والجملة الاخيرة الواقعة الى اليمين تقرأ من اليسار الى اليمين وترجمتها «إنى أجعله لديذا لذاتى»

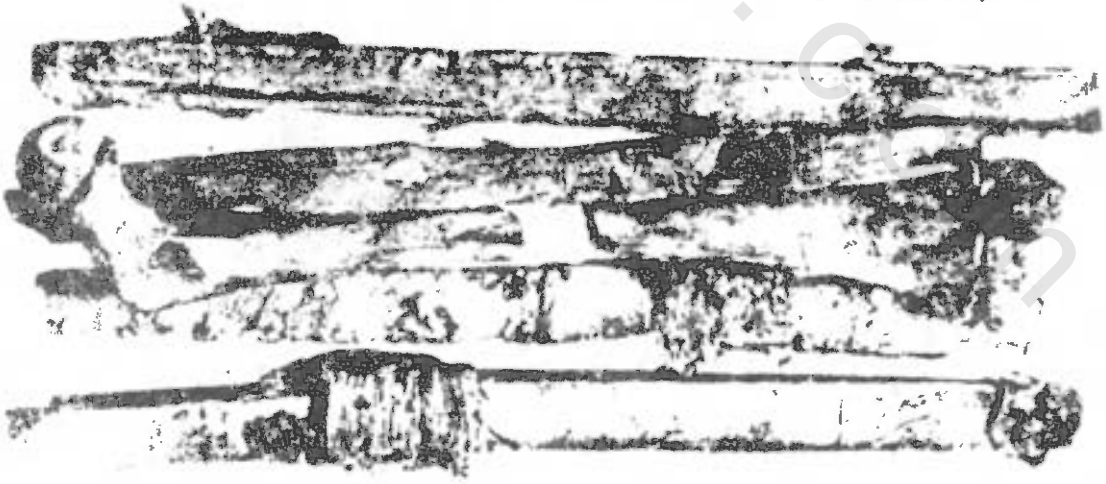

* الجراحـــة العامة :

وكانت الخراريج تُفتح بالمشارط ، والأكياس تفتح بمشارط معينة ، ثم تفرغ محتوياتها بمشارط من نوع آخر ، وأخيراً يزال غلافها إزالة تامة لاجتناب تولدها من جديد ، ويتم ذلك بآلات من نوع ثالث ، ولنا أن نتعجب من هذه الخبرة الفائقة التى أملت عليهم كل هذا السبق فى هذا الفن .

* طـب العظـــام :

أما الكسور والخلوع ، فقد رأينا كيف كان مؤلف «بردية أدوين سميث» يوصى بردّها بطرائق لا تقل فاعلية عن أفضل وسائلنا فى العلاج اليوم ، وكانوا يضعون الأطراف بعد ردها فى جبائر ، وتم الكشف عن بعضها فوُجد أن تاريخه يرجع إلى عهد ما قبل الأسر أى قبل سنة (٣٥٠٠ ق . م) ، وكانت تتكون ، عادةً ، من قطع من الخشب أو القشرة تتصل كل منها بالأخرى بواسطة أربطة، وتبطن بالكتـان ، وتوضع حول العضو المكسور كالأسطوانة .

* طب العـيـون :

اشتهر قدماء المصريين بالبراعة فى علاج الرمد ، وألجأهم إلى ذلك انتشار أمراض العيون فى وادى النيل ، وكان «قورش» ملك الفرس قد انتدب طبيباً خاصاً من مصر استوفده إليه لعلاج عينيه ، فتم له الشفاء على يديه .

ومن جملة النصوص الطبية المدونة فى بردية «ابرس» ترى إحصاء لأمراض العيون وعلاجها ، ومن أنواعها التهاب الملتحمة المسبب للغشاوة والتهاب القزحية المسبب لسيلان الدموع ، ومرض الذبابة الطائرة ، والتهاب الجفون ، والنقطة القرنية ، والشطرة الجارحة ، والورم الصغير فى الجفون والعمى ، وكانوا يسرعون فى استئصال شعرة الرمش من العين قبل تأثيرها الضار على العين ،

كما كانوا يعالجون أمراض الجفون الداخلة ببراعة مدهشة ، ولم يمنعهم فى معالجة العيون من الأمراض البسيطة استعمال الكحل والمراهم متى كانت من المواد المعدنية النقية أو النباتية ومطابقة فى تركيبها للطرق العلمية . فضلاً عما كانت تتخذه نساؤهم من وسائل العناية لتوقى أمراض العيون بكل احتياط ، وقد اهتموا بالوسائل الصناعية كالحور وتزجيج الحواجب وتخضير العيون بنوعين من الدهان أحدهما أخضر والثانى أسود ، وهذا الدهان الأسود كان يستعمل للزينة والعلاج من العوارض الرمدية الاعتيادية فى أدائها .

ويوجد فى متحف ليدن صندوق يحوى أنواعاً من التبهرج والزينة للسيدات المصريات وبه أربعة عيون مكتوب عليها النقوش الآتية باللغة المصرية القديمة :

١ـ الدهان اليومى للأعين.

٢ـ الدهان المخصص لزينة الأعين.

٣ـ الدهان الجالب للمدامع .

٤ـ الدهان ؛ لاستجلاب الحيض فى غير أوانه .

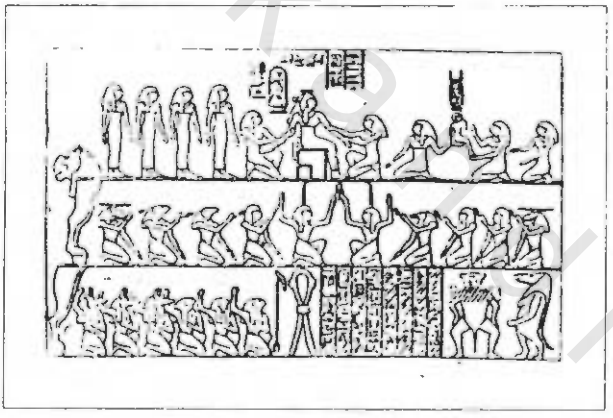

* طـب الصناعات :

وهناك صورة فى مقبرة المهندس المعمارى «ايبوى» ، تمثل شخصاً يرد كتف أحد العمال المخلوعة [شكل ٢ـ٥] وغيره يتألم من عرق سقط على قدمه، وثالثاً ينتزع شظية من عين زميله ، وكأن هذه الصورة الجامعة تمثل منظراً لطب الصناعات .

* طب النساء والولادة :

يوجد على جدار بمعبد (كوم امبو) بأسوان ، نقش يمثل آلات مختلفة قيل إنها جراحية ، كما قيل عن سيدتين مرسومتين بجوارها أنهما سيدتان حاملتان جالستان على كرسى الولادة ، إلا أن المتأمل لهذا النقش يتبين أن تلك الآلات من الضخامة والغلظ بما لا يتفق واستعمالها الطبى ، وأن من بينها ميزاناً مع أن المعروف عن المصريين القدماء أنهم لم يألفوا تقدير العقاقير بالوزن ، بل كانوا يقيسونها بالحجم ، ويوجد من بينها مبخرة وإناء يحتوى بخوراً متصاعداً ، وعين الإله (حور) ذات المعانى السحرية ، إلى غير هذا من الأشياء التى ليست لها معان طبية ، ولذا فإن الأرجح أن هذا النقش يمثل الآلات التى استعُملت فى بناء المعبد وتدشينه ، والتى قدمها الامبراطور تراجان (بانى المعبد) ، إلى الإله على صورة هدية التأسيس ، وكان هذا تقليداً معروفاً .

أما السيدتان فإنهما إلهتان ، كما يبدو من الرموز المنقوشة فوق رأسيهما ، وحسبما صورت الآلهة فى بقية المعبد . أما كرسى الولادة المزعوم فهو يمثل المائدة المألوفة فى هذه الرسوم .

A B C

هذه الرسوم الثلاثة اشارات هيروغليفية تعنى فكرة الولادة . فالرسم المرقوم برقم (A) يرجع عهده الى الاسرة السادسة المصرية والمرقوم برقم (B) الى الاسرة ١٢ والمرقوم برقم (C) الى الاسرة ١٨

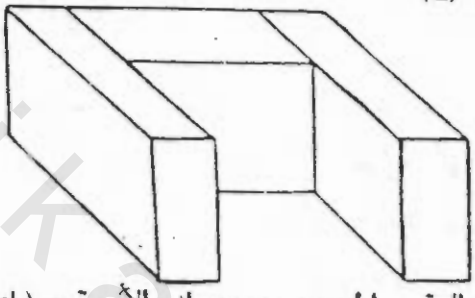

رسم مقعد للوالدة من الحجر يرجع عهده الى الأسرة ٦ (اى منذ ٢٥٠٠ سنة ق . م)

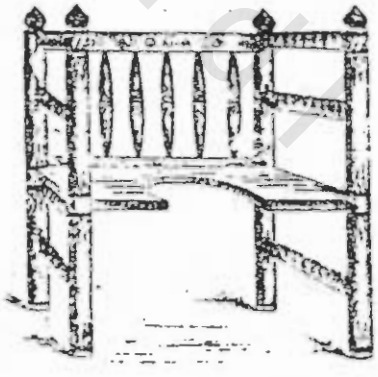

مقعد للوالدة المستعمل الآن فى الديار المصرية وبلاد الشرق وهو مصنوع على مثال كرسي الوالدة عند قدماء المصريين السابق ذكره

* الآلات الجراحيـــة :

ومن الآلات التى قيل عنها إنها جراحية ؛ مقص مزعوم موجود منه أمثلة فى كل المتاحف ، وربما كان غير هذا ، فإن نصفى تلك الآلة يتقابلان فى وسطهما دون أن يتقاطعا ، فإن ضُمَّ طرفاهما من ناحية تباعد الطرفان الآخران، بعكس المقصات ، ثم إن بأحد الطرفين تجويفاً يستقبل الطرف الآخر الشبيه بالإبرة ، الأمران اللذان يرجحان أن تلك الآلة كانت تستعمل لتجعيد الشعر على الطراز الذى كانوا مولعين به .

* جراحة الأسنان :

وفى عالم جراحة الأسنان أوصت بردية «إبرز» بحشو الأسنان المسوسة ، وقد كشف «بونكر» فى مقبرة بالجيزة ، عن سن قلقة مثبتة بسلك من الذهب ، كما وصف (هارس) ، وزكى إسكندر سناً أخرى مثبتة بسلك من الفضة .

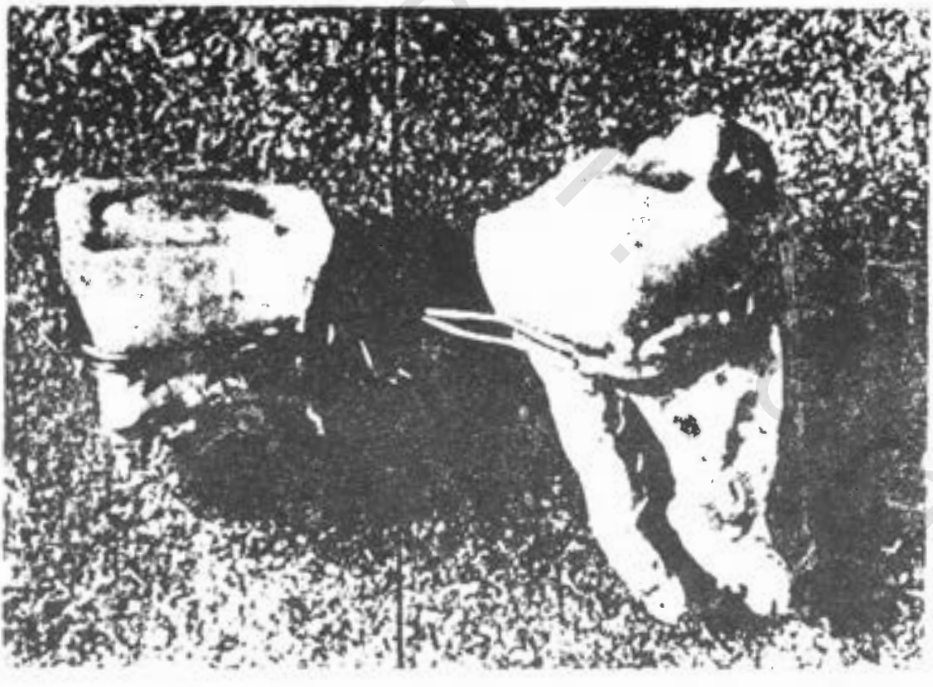

* الرضاع والفطـام :

وجدت ضمن الأوراق الطبية الأثرية أبحاث كثيرة عن ذلك ومن بينها العناية بأمراض الثديين واستدرار لبنهما الذى هو المادة الأولى فى تربية المولود . ووُجد فى كثير من المعابد المكتشفة مناظر الرضاعة والوالدات ، ومنها رسم ايزيس ترضع ابنها حورس ، وهاتور ترضع ابنها فرعون فى صغره . « والأفضل طبياً لصحة الأمهات إرضاعهن الأطفال تخفيفاً للاحتقانات المتسببة عن احتباس اللبن فى الثدى ، ولتكون عاطفة الحنان مقترنة بالرضاعة فتزيد مع نمو التربية وتستديم فى القلوب الرأفة والرقة . ومهما كان حرص السيدات على رونق الزى وزخرفة الثياب فالاعتبارات القلبية أسمى ذوقاً وأرقى أثراً » .

« وكان الطفل يُفطم وعمره ثلاث سنوات بدليل ما جاء فى حكم آنى الفيلسوف المصرى القديم قوله : «إن الله سخر لك أُمّا كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات وربتك ولم تأنف من فضلاتك ، ولم تسأم معاناة تربيتك ، ولم تكل أمرك لغيرها يوماً ما ، وكانت تبر أساتذتك وتواسيهم كل يوم ليعتنوا بتعليمك . والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما اعتنت بك أمك ، ولا تغضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك» .

* الطب الباطنى :

ونتحدث الآن عن العلاج الباطنى ، فنجد أن فلسفة المرض هى التى حتّمت على المصريين القدماء ، أن يعالجوه بمجموعة من الوسائل هدفها التخلص من سبب المرض أولاً .. ومن نتائجه ثانياً . فلقد تصوروا أن المرض عامل خارجى يتسلل إلى الجسم متمثلاً فى : روح غريب ، أو غذاء ، أو سحر ، فإذا دخل الجسم ، سَرَى فى أوعيته وتحول إلى خُرّاج أو ورم أو دود أو عنصر مرضى آخر .

إذن كان يتحتم أولاً التخلّص من الروح أو السحر عن طريق الصلوات والتمائم والماء المسكوب على التماثيل الواقعية ، ومن محتويات الأمعاء عن طريق الملينات والحقن الشرجية وخاصة باستعمال الخروع الذى خصّصوا لفوائده باباً مطولاً فى بردية «إبرز» ، وبعد ذلك كان يتعين إعادة الأشياء إلى ما كانت عليه باستخدام العقاقير ، ويتم استخدام نفس الخطوات السابقة فى العلاج إذا كان سبب المرض روحانياً أيضاً .

* العلاج بالأعشاب الطبية واستخدام العقاقير :

شملت العقاقير التى استعملها الفراعنة فى طبهم مواد معدنية ونباتية وحيوانية واستخدموا من الأولى الأحجار الكريمة والذهب لتركيب الطلاسم ، والشب والنطرون وأملاح الجير والنحاس ، والأنتيمون والحديد .

ومن النباتات ، كانوا يصفون عدداً يزيد على مائتين وخمسين ، نذكر بعضهم مع فوائدها المعروفة : البابونج والينسون والكمون والنعناع والزعتر وهى طاردة للأرياح ، والعنصل والعرعر مدرين للبول ، والخشخاش والسكران واللفاح مسكنات ، والحنظل والصبر والخروع والتين ملينات ، والششم للعينين، والجنطيان وحب الهال والشبت تعتبر مواد هاضمة ومشهية ، واستخدموا الزعتر وقشر الرمان لطرد الديدان ، واستخدموا الجعة (البيرة) والنبيذ والزيوت والأصباغ كمواد مسوغة لعقاقير فعالة .

ومن المواد الحيوانية ، استخدموا العسل واللبن فى علاجاتهم ، ولقد حظى لبن المرأة التى أنجبت طفلاً ذكراً باهتمامهم الأول فاستعملوه كدواء حتى أنه ليبدو أساساً من أُسس علاجهم . وكانوا يعدونه سائلاً ثميناً ، ولهذا وضعوه فى أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولداً هزيلاً ، ويظن بعض العلماء أنه الطفل الذى أنجبته إيزيس من زوجها المتوفى أوزيريس .

ومن المواد الحيوانية الأخرى التى استخدموها فى العلاج ؛ نذكر كبد الحوت لشفاء العشى الليلى ، ومما لاشك فيه أن كمية فيتامين «أ» التى يحتويها كبد الحوت قادرة على شفاء هذا المرض .

* العلاجات الوهمية :

غير أن هناك وصفات كثيرة من تلك التى استعملوها لا تمتّ إلى الطب بصلة ، مثل تدليك جانب الرأس المتألم برأس سمك مقلو ، وذلك لعلاج

الصداع الجانبى ، فقد كانوا يعتقدون أن ذلك ينقل الألم من الرأس المصاب إلى رأس السمكة . وكذلك علاج العمى بوضع سوائل عين الخنزير فى أذن المريض ... إلخ .

ويمكن درج تلك العلاجات ضمن الوصفات الشعبية التى ما زال الشعب يستعملها ، مثل علاج الحصبة بارتداء ثياب حمراء ، أو استخدام مواد صفراء لعلاج اليرقان (الصفراء) لتشابه الألوان بينهما. وكل ذلك يمكن أن يندرج تحت مسمى «العلاجات الوهمية» .

ومن العلاجات الوهمية أيضاً تلك التى تسعى إلى طرد الشياطين بالمواد المنفرة كالغائط ، واجتذاب الأرواح الطيبة بالعطور أو الحلوى ، على أنه يتحتم علينا عدم التسرع فى الحكم على بعض العقاقير المسماة بأسماء غريبة ؛ كسن الحمار ، أو ريشة الإله تحوت ، إذ أننا نجهل حقيقة مدلولها .

إننا اليوم نسمى بعض الأعشاب «كعب العفريت» ، و «فساء الكلاب» .. إلخ ونحن فى القرن العشرين ! فهل نلوم قدماء المصريين على ما خلفوه من مسميات لأعشابهم الطبية ، قد تبدو غريبة فى عالم اليوم ؟!

وقد استعار الإغريق العقاقير التى استخدمها المصريون القدماء حتى أغربها وسنعرض لذلك فيما بعد .

تعليق على ما ورد فى هذا الفصل :

نخطئ كثيراً إذا ظننا أن الطب المصرى القديم كان ثابتاً أو مطرد التقدم ، فقد نشأت الحضارة فى مصر فى العصر الحجرى ، ووصلت إلى تمام ازدهارها فى عهدها الذهبى ، متراوحة بين التقدم والتقهقر تبعاً للأزمات السياسية التى قابلتها ، ولذا فإن أية محاولة لوضع تلك الحضارة أو طبها فى إطار واحد هو محاولة مصطنعة ومفتعلة ، إذ شتان بين تفكير معاصرى مينا ، ورعايا رمسيس وبين معارفهم وتحقيقاتهم .

ومن الخطأ أيضاً إذا تخيلنا أن طب أى حقبة تاريخية حقق تقدماً عما سبقه أو أن الطب بدأ بالسحر وانتهى إلى العلم ، كما يبدو بداهة . لقد لاحظ «جرابو» ؛ فى شىء من الدهشة ؛ أن البرديات الطبية تزيد واقعيتها كلما زاد قدمها .

وعلى العكس من ذلك فإن الشعوذة تكثر كلما اقتربت البرديات منا ، وهذا معناه أن الأطباء المصريين القدماء وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الطب المحقق قبل عهدنا هذا بثلاثة آلاف سنة أى فى عهد تشييد الأهرام ، وأنهم وقعوا تحت تأثير الخرافات عندما اتصلوا بجيرانهم وتلوثوا بأديانهم .

وفوق هذا ، فإن أى حكم نصدره اليوم يشوبه وجه آخر من النقص لافتقارنا إلى مصادر كافية للبحث . فإننا نعتمد فقط على تسعة مخطوطات هى كل ما وصلنا عن عهد دام أربعين قرناً من الزمان .

وهذه المخطوطات تختلف قيمتها من واقعية مثل «بردية أدوين سميث» إلى تخريف «بردية لندن وليدن» . ومع ذلك فإن أغلب المؤرخين لم يميزوا بينها فأخذوا أوهام البرديات السحرية على أنها النظريات الطبية الرسمية وخلطوا بينها، كأن خلفاءنا يحكمون علينا بقراءة مؤلف استنسخ من نبذة يسيرة من أحدث المؤلفات مخلوطة بأخرى من كتب الرُّقى ووصفات (أولاد البلد) .

ولذا فإن أى حكم مؤقت يُعد قابلاً للاستئناف والنقض ، فهناك ما اندثر من المخطوطات ، وهناك ما لم يتم الكشف عنه إلى اليوم ، وهناك بيوت الحياة التى كان يتردد عليها طلبة العلم وهى المدارس التى دمرها الفاتحون المتعصبون ، وهناك كنوز التعليم السرى فى سراديب المعاهد ... إلخ .

ومن يدرى ، فربما كشف لنا حُسن الطالع ، ذات يوم ؛ عن مدرسة من مدارس بيوت الحياة البرديات المودعة فيها ، فتثير ضجة كالتى أثارتها «بردية إدوين سميث» وحتى إذا سلمنا بأن المصريين القدماء قد نشأوا فى جو من

السحر والجهل ، شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب الفتية ، فالذى لا شك فيه أنهم كانوا أول من حاول العبور من السحر إلى العلم ، فهيئوا بذلك الجو الملائم للإغريق ولمن حمل الراية من بعدهم فى الإسكندرية وحوض البحر المتوسط بأكمله .

نعم : لولا حضارة مصر القديمة ما قُدِّر لهؤلاء أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه .

●●●●●●

obeikandl.com